أحوال الدعوة الإسلامية
في
عهد الظاهر بيبرس

إعداد

د. أحمد حسن علي عمر

المدرس بقسم الثقافة الإسلامية

بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة – جامعة الأزهر

رئيس مجلس الإدارة والتحرير

أ.د. كامل محمد جاهين إسماعيل

أستاذ الحديث وعلومه
وعميد كلية الدراسات الإسلامية للبنين بأسوان

نائب رئيس مجلس الإدارة

أ.د. حسن إبراهيم مصطفى

أستاذ الحديث وعلومه المساعد
ووكيل الكلية لشئون التعليم والطلاب

مدير التحرير

د. أحمد فكري صديق

مدرس الفقه العام بالكلية

أعضاء مجلس الإدارة

أ.د. أحمد الأمير محمد جاهين

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

د. حمدي محمد ضيف حسين

مدرس التفسير وعلوم القرآن

د. سامي خميس بهنسي

مدرس أصول الفقه بالكلية

د. محمد رمضان

مدرس أصول الفقه بالكلية

الهيئة الاستشارية

أ.د / طارق عثمان الرفاعي إبراهيم

أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب
جامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية

أ.د/ بلخير طاهري الإدريسي

أستاذ أصول الفقه بجامعة وهران ـ بالجزائر

أ.د/ أحمد عبد العزيز السيد سليم

أستاذ أصول الفقه بجامعة البحرين ـ بالبحرين

مجلة كلية الدراسات الإسلامية للبنين بأسوان

مجلة علمية محكمة نصف سنوية

العدد السادس - إصدار ديسمبر ٢٠٢٢/٢٠٢٣م

الترقيم الدولي : ISSN 2812-5266

موقع المجلة https://fisb.journals.ekb.eg

أحوال الدعوة في عهد الظاهر بيبرس

أحمد حسن علي عمر

قسم الثقافة الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

وقسم الدراسات الإسلامية بجامعة نور- مبارك، كازاخستان.

البريد الإلكتروني: AhmedOmer133@azhar.edu.eg
AHMEDHAOMER@GMAil.COM

ملخص البحث:

يهتم البحث بالكشف عن أحوال الدعوة الإسلامية في خلال حكم الظاهر بيبرس، فقد تولى الحكم في فترة مهمة من حياة الأمة الإسلامية سنة ١٢٦٠ميلادية سنة ٦٥٨هجرية؛ حيث كان يتربص بها المغول من الشرق، وحيث كانت الحملات الصليبية من الغرب على أشدها، إضافة إلى الفتن الداخلية التي كانت تملأ أرجاء العالم الإسلامي في ذلك الوقت. وقد كانت الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت متأثرة بالأحداث الجارية فيه، فقد انتشر المذهب الشيعي في عدد من البلدان الإسلامية، وكادت العلوم الإسلامية لتندثر عقب استيلاء المغول على عاصمة الخلافة العباسية التي كانت تحتوي على مكتبات ومدارس علمية وكتب وعلماء تم الإجهاز عليهم من قبل الاعتداء المغولي. وقد بذل الظاهر بيبرس جهودا كبرى في إنصاف المذهب السني والدفاع عن الدعوة الإسلامية، وتذليل سبل تبليغ الدعوة الإسلامية ونشر الثقافة الإسلامية للعالمين. ولا شك أن مرحلة الظاهر بيبرس كانت مليئة بالإنجازات العديدة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي وكذلك الدعوي. فقد ازدهرت الدعوة الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس ازدهارا واسعا؛ حيث عمل الظاهر بيبرس على تذليل العقبات أمام الدعوة الإسلامية في كافة المناحي: فمن حيث الفتوحات الإسلامية فقد سجل التاريخ للظاهر بيبرس انتصارات عديدة وفتوحات لمدن وولايات كثيرة امتدت شمالا حتى تخوم البلاد التركية. وقام بتحرير العديد من الولايات والمدن من احتلال الغرب المسيحي بخاصة في بلاد الشام وأطراف بيت المقدس. وفي ناحية الدعوة الإسلامية في داخل

البلاد الإسلامية فقد عمل على نشر المذهب السني الذي يعتمد في ناحيته الفكرية على المذهب الماتريدي والمذهب الأشعري ويعتمد في ناحيته الفقهية على المذاهب الأربعة المشتهرة: المذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي. وقد عمل على دحر المذاهب المتطرفة كالمذهب الشيعي الفاطمي الذي قضى أكثر من قرن يحتل المذهب الرسمي للدولة الفاطمية قبل تولي بيبرس الحكم في بلاد مصر، وقضى على فرقة الحشاشين المتطرفة التي ملأت أرض المسلمين خوفا وبطشا واغتيالات للعلماء، والأمراء، والقضاة، وغيرهم.

والبحث يلقي الضوء على أحوال الدعوة الإسلامية في مرحلة مهمة في حكم المماليك، بحيث يزيل الغبار على الكثير من المنجزات الدعوية في عهد الظاهر بيبرس، ويكشف عن بعض الشبهات حول تاريخ الظاهر بيرس في حكم مصر والشام. ويعتمد على المراجع الأصلية في هذه المرحلة الخالدة في وجدان المصريين خاصة وبلاد العرب والمسلمين قاطبة.

الكلمات المفتاحية: أحوال، الدعوة، الإسلامية، الظاهر، بيبرس.

Cases of the Islamic call during the era of al-Zahir Baybars

Ahmed Hassan Ali Omer

Lecturer in Islamic Culture, Department of Islamic Dawa College, at Al-Azhar University.

E-Mail: AhmedOmer133@azhar.edu.eg

AHMEDHAOMER@GMAil.COM

Summary:

The research is concerned with revealing cases of the Islamic call during the rule of al-Zahir Baybars, as he assumed power during an important period in the life of the nation; Where the Mongols were lurking from the East, and where the Crusades from the West were at their strongest, in addition to the internal strife that was filling all parts of the Islamic world at that time. The Islamic call at that time was affected by the current events in it, as the Shiite sect spread in several Islamic countries, and Islamic sciences almost disappeared after the Mongols took over the capital of the Abbasid Caliphate, which contained libraries, scientific schools, books, and scholars who were eliminated by the Mongol aggression. l-Zahir Baybars made great efforts to do justice to the Sunni sect and defend the Islamic call and overcome the ways of communicating the Islamic call and spreading Islamic culture to the worlds.is no doubt that the era of al-Zahir Baybars was full of many achievements at the political, economic, and social levels, as well as advocacy. The Islamic call flourished widely during the era of al-Zahir Baybars. Al-Zahir Baybars worked to overcome the obstacles facing the Islamic call in all aspects. In terms of Islamic conquests, history has recorded many victories for al-Zahir Baybars and conquests of many cities and states that extended north to the borders of the Turkish country. He liberated many states and cities from the occupation of the Christian West, especially in the Levant and the outskirts of

Jerusalem. In terms of the Islamic call within the Islamic countries, he worked to spread the Sunni school of thought, which relies in its intellectual aspect on the Maturidi school of thought and the Ash'ari school of thought, and in its jurisprudential side, it relies on the four well-known schools of thought: the Hanafi school of thought, the Maliki school of thought, the Shafi'i school of thought, and the Hanbali school of thought. He worked to defeat extremist sects, such as the Fatimid Shiite sect, which spent more than a century occupying the official doctrine of the Fatimid state before Baybars assumed power in Egypt, and eliminated the extremist Hashashin sect that filled the land of Muslims with fear and oppression, as well as assassinations of scholars, princes, judges, and others. The research sheds light on the conditions of the Islamic call at an important stage in the rule of the Mamluks, so that it clears the dust on many of the preaching achievements during the era of al-Zahir Baybars, and reveals some suspicions about the history of al-Zahir Peres in the rule of Egypt and the Levant. And it depends on the original references at this timeless stage in the conscience of the Egyptians in particular and the Arab and Muslim countries in general.

Keywords: Cases, Da'wah, Al-Zahir, Baybars.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله المختار، المبعوث بشيرا ونذيرا للعالمين، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعـــد؛؛؛

فيهتم هذا البحث بالكشف عن أحوال الدعوة الإسلامية أثناء حكم الظاهر بيبرس من خلال قراءة تحليلية في تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد تولى الظاهر بيبرس الحكم في فترة مهمة من حياة الأمة؛ حيث كان يتربص بها المغول من الشرق، وحيث كانت الحملات الصليبية من الغرب على أشدها، إضافة إلى الفتن الداخلية التي كانت تملأ أرجاء العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

وقد كانت الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت متأثرة بالأحداث الجارية فيه، فقد انتشر المذهب الشيعي في عدد من البلدان الإسلامية، وكادت العلوم الإسلامية تندثر عقب استيلاء المغول على عاصمة الخلافة العباسية التي كانت تحتوي مكتبات ومدارس علمية وكتب وعلماء تم القضاء عليهم من قبل الاعتداء المغولي.

وقد بذل الظاهر بيبرس جهودا كبرى في إنصاف المذهب السني والدفاع عن الدعوة الإسلامية ورد عادية المغول، وتذليل سبل تبليغ الدعوة الإسلامية ونشر الثقافة الإسلامية للعالمين.

معْقِد الطرافة في الموضوع:

أنه يتناول أحوال الدعوة الإسلامية إبان فترة محددة من تاريخ الأمة وهي حكم الظاهر بيبرس التي استمرت قرابة سبعة عشر عاما.

منهج البحث:

استخدمت المنهج التاريخي والتحليلي لأحداث التاريخ وصولا إلى الكشف عن حالة الدعوة الإسلامية خلال فترة حكم الظاهر بيبرس.

خطة البحث:

وقد أدرتُ البحث على مقدمةٍ، وثلاثة مطالب وخاتمةٍ، ومراجع وفهرست، وقد جاءت كما يلي:

المقدمة؛ وبينت فيها أهمية الموضوع، وخطة البحث.

المطلب الأول: التعريف بالمماليك.

المطلب الثاني: التعريف بالظاهر بيبرس.

المطلب الثالث: أحوال الدعوة الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس.

الخاتمة وفيها:

١- أهم النتائج.

٢- أهم التوصيات.

٣- أهم المراجع.

٤- فهرس بالموضوعات.

والله الموفق والمعين، وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمدٍ خير من تكلم، وعلى آله وصحبه خير من تعلم، وارضَ اللهم عنّا وعن علمائنا الأبرار الطاهرين.

المطلب الأول

التعريفِ بالمماليك

إن أصل كلمة "مماليك" يرجع إلى كونها: جمع مملوك، وهو الرقيق الذي يباع ويشترى، وهي اسم مفعول من الفعل (ملك)، واسم الفاعل منها "مالك"، والمملوك هو عبد لِمالكه، ويختلف عن العبد الذي بمعنى الخادم. كما أن كلمة (مماليك) تختلف في معناها عن كلمة (موالي) التي مفردها (مولى)، والتي تعني -اصطلاحا- عند المؤرخين المسلمين: كل من أسلم من غير العرب. فالموالي قد يكون أصل بعضهم من أسرى الحروب الذين استرقوا ثم أعتقوا، أو من أهل البلاد المفتوحة الذين انضموا إلى العرب فصاروا موالي بالحلف والموالاة. (١)

وانتشرت تجارة الرقيق في العصور الوسطى؛ وكان يتم جلب الفتيان والبنات من بلاد بعيدة إلى أسواق الرقيق؛ حتى يقوموا بالخدمة أو اللهو أو يقوموا بحراسة ملاكهم.

وكانت طريقة اقتناء التجار لهؤلاء الرقيق هي السرقة والاختطاف، حيث يقومون بسرقة الغلمان ويختطفون البنات العذارى من ذويهم، ثم يقومون ببيعهم ويستحلون شراءهم.

وكانت الحروب والغارات الحربية التي يشنها الغزاة على بلدان العالم من الطرق المنتشرة التي يتم بها اجتلاب الرقيق، حيث يتم سبي الجواري والغلمان ويتم بيعهم بواسطة النخاسين الذين يتاجرون في الرقيق.

وقد ساعد على رواج هذه التجارة توقع الحظ الحسن الذي ينتظر الأرقاء في مستقبل حياتهم، حيث تدفع بهم الأقدار إلى أن يصلوا إلى ما يصل إليه قادة الرجال وكريمات النساء من عز وقوة ورفاهية.

---

(١) المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، شفيق جاسر أحمد محمود، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الحادية والعشرون – العددان: ٨١ ، ٨٢ - المحرم - جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ، عدد الأجزاء: ١.

وجدير بالتسجيل هنا أن الرق كان ظاهرة منتشرة بين كل الشعوب والدول في ذلك الوقت فلم يقتصر على شعب دون آخر أو جنس دون آخر: فقد كان من الأرقاء التركي والجركسي والرومي والزنجي، والحبشي، والفارسي، وغيرهم.

وكانت الأجناس التركية والجركسية أشد أجناس الرقيق رواجا في تجارة الرقيق؛ لما تتصف به من جمال وطيب مجلس، ولما ابتليت به بلادهم من الهجوم المتكرر والحروب الطاحنة.

وقد ذكر بعض مؤرخي عصرنا الحاضر أن أول من استخدم المماليك الأتراك في مصر، وجلبهم إلى بلاد العرب هم خلفاء الفاطميين تشبها بالخلفاء العباسيين في بغداد، ثم ملوك الدولة الأيوبية.

وكان أول من استخدم المماليك وجلبهم إلى مصر هو السلطان أحمد بن طولون. وهو أول السلاطين الذين استقلوا بمصر منذ الفتح العربي الإسلامي.

يقول القلقشندي في كتاب صبح الأعشى: **"وأولهم – يعني من ولي مصر ملكا قبل دولة الفاطميين- أحمد بن طولون...وفي أيامه عظمت نيابة مصر وشمخت إلى الملك، وهو أول من جلب المماليك الأتراك إلى الديار المصرية، واستخدمهم في عسكرها"**.[١]

لغة المماليك:

وبالنسبة للغة المماليك فقد كانوا يعتمدون على اللغة التركية وهي مليئة بالفارسية والعربية، حتى لو لم يكونوا من الترك، فعدد كبير من سلاطين المماليك وأمرائهم وصلوا إلى السلطنة ووظائفها العالية دون أن تكون لهم معرفة بالعربية، ومع ذلك فكثير من المماليك أتقن العربية وأصبح فصيح اللسان وله مسائل في الفقه عويصة يرجع له فيها العلماء.[٢]

(١) صبح الأعشى في كتابة الإنشا- الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندي، ج٣، ص ٤٣٠، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.

(٢) دولة المماليك في مصر البداية والنهاية، د. إيناس حسني البهجي، الخرطوم، دار التعليم الجامعي، ص ٣٨، بدون تاريخ.

تربية المماليك:

كانت تربية المماليك تمر بعدد من المراحل:

المرحلة الأولى: جلبهم من قبل تجار الرقيق وعرضهم على السلاطين.

المرحلة الثانية: يختار السلاطين أحسنهم حجة وذكاء وقوة.

المرحلة الثالثة: إرسالهم إلى قلاع وأبراج وطباق خاصة بهم للتدريب والتعليم.

وكان السلاطين يرتبون لهم دروسا من الفقهاء والعلماء؛ حتى يلقنوهم أصول الدين والعلوم ويأخذوهم بملازمة الفرائض؛ وهذا ما يفسر لنا بلوغ بعض سلاطين المماليك مرتبة العلماء كالسلطان الملك المؤيد وغيره.(١)

ويصف المقريزي حياة المماليك وعاداتهم ومواد التدريس بهذه القلاع ومراحله فقال: "**كان للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، منها أنه إذا قدم بالمملوك تاجرُه عرضه على السلطان، و أنزله في طبقة جنسه، وسلمه لطواشي برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط والتحدث بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا يجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك، علمه الفقيه شيئا من الفقه، و أقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ، أخذ في تعليمه أساليب الحرب، من رمي السهام، ولعب الرمح، ونحو ذلك فيتسع في ذلك حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج**".(٢)

وكان السلاطين يشرفون بأنفسهم على تربية مماليكهم ويتفقدون أحوالهم، ومنهم السلطان الناصر قلاوون ٦٧٩-٦٨٩ هـ (١٢٨٠-١٢٩٠م) الذي كان يهتم بطعامهم ومعيشتهم بنفسه، ويقول معتزا بهم: "**كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال**

(١) راجع: موسوعة التاريخ الإسلامي، أد أحمد شلبي، ج٥، ص ٢٢، مكتبة النهضة، ١٩٩٠م.

(٢) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المقريزي، بولاق ١٢٧٠هـ تحقيق: مصطفى زياد، ج ٢، ص ٢١٤.

ورجال وعقار، وأنا عمرت أسوارا وعملت حصونا لي ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك".

وصدق ظنه بهم إذ قال أبو المحاسن عن مماليك قلاوون هذا: "**فكان بهم- أي المماليك- منفعة للمسلمين ومضرة للمشركين، وقيامهم في الغزوات معروف، وشرهم عن الرعية معكوف**".

أنواع المماليك:

قسم عدد من المؤرخين المماليك إلى دولتين أو إلى فرعين هما:

١- دولة المماليك البحرية. وقد امتد حكمها من سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م إلى ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م.

٢- دولة المماليك البرجية. وقد امتد حكمها من سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م إلى ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م.وهذه هي أشهر التقسيمات للمماليك التي اعتمدها المؤرخون في مؤلفاتهم.[١]

(١) التحفة المملوكية بيبرس المنصوري، د. عبد الحميد صالح حمدان – القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٢٦.

المطلب الثاني
تعريف بالظاهر بيبرس.

هو الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري من المماليك الصالحية، وهو سلطان مصر والشام، وهو رابع سلاطين الدولة المملوكية [١] ومؤسسها الحقيقي.

بدايته:

ولد بيبرس في عام ٦٢٥هـ /١٢٢٨م، حيث بدأ حياته مملوكا فقد بيع في أسواق بغداد والشام وانتهى به الأمر إلى أن يكون أحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط.

وقد حقق الكثير من الانتصارات ضد الصليبيين وخانات المغول ابتداءً من معركة المنصورة سنة ١٢٥٠م، ومعركة عين جالوت ضد المغول ١٢٧٧م، وقد قضى أثناء حكمه على جماعة الحشاشين واستولى على إمارة أنطاكية من الصليبيين.

ثم حكم مصر عقب رجوعه من معركة عين جالوت واغتيال السلطان سيف الدين قطز من سنة ١٢٦٠م؛ حيث خطب له بالمساجد يوم الجمعة السادس من ذي الحجة ٦٥٨هـ الموافق ١٢٦٠/١١/١١م، وقد توفي -رحمه الله- عام ١٢٧٧م عن عمر يناهز ٥٤ سنة وذلك عقب رجوعه من معركة الأبلستين ضد خانات المغول سنة ١٢٧٧م.

أصول الظاهر بيبرس:

تذكر المصادر العربية والمملوكية الأصلية أن الظاهر بيبرس من قبائل القبجاق وهي دولة كازاخستان الحالية وقد ولد في محافظة "أتيراو" في الشمال الشرقي لجمهورية كازاخستان، وفي زيارة لهذه المدينة وجدت عددا من قبيلة القبجاق لهم مناصب عليا في الدولة وفي العلوم وفي شتى المناصب والمؤسسات وقد لاحظت اعتزازهم الشديد بانتماء

(١) والثلاثة على التوالي هم: عز الدين أيبك، وبعده ابنه نور الدين علي بن عز الدين أيبك، وبعده الملك المظفر سيف الدين قطز، ثم الظاهر بيبرس.

السلطان الظاهر بيبرس إلى قبيلو القبجاق، ومن مظاهر هذا الاعتزاز انتشار التسمية باسم بيبرس لأبنائهم، واطلاق اسم بيبؤس على العديد من الطرق الرئيسية والمؤسسات التجارية والتعليمية، وقد لاحظت اهتمام الباحثين منهم بجمع المخطوطات الخاصة بالظاهر بيبرس والعمل على ترجمتها الى اللغة الكازاخية، وهذا الاهتمام اصبح رسميا من قبل دولة كازاخستان حيث جعلت هذا العام الميلادي ٢٠٢٣م خاصا بالاحتفال بمرور ٨٠٠ عام على مولد السلطان الظاهر بيبرس، حيث ضمن هذا العام العديد من المؤتمر في كازاخستان لهذا الغرض بل امتد الامر إلى مشاركة الدولة المصرية بالاحتفال بمرور ٨٠٠ عام على مولد بيبرس وقد تم ترميم وافتتاح مسجد الظاهر بيبرس بالقاهرة الموافق ٢٠٢٣/٦/٥م. (١)

ويشير العلامة المقريزي بأن الظاهر بيبرس وصل إلى مدينة "حماة" مع أحد التجار وتم بيعه للأمير علاء الدين أيدكين البندقداري صاحب الخانقاه في بركة الفيل بالسيدة زينب بالقاهرة، وقد سمي بالبندقداري ثم انتقل بعد مصادرة ممتلكات سيده علاء الدين أيدكين إلى خدمة السطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة. ثم أعتقه الملك الصالح ومنحه الإمارة فصار أميرا.

كان بيبرس ضخمًا طويلاً ذا شخصية قوية، وصوته جهوري وعيناه زرقاوان ويوجد بإحدى عينيه نقطة بيضاء، وقد يكون سبب زرقة عينيه أن أصله كان مختلطا. وكان شعار دولته " الأسد" وقد نقش صورته على الدراهم.

(١) قمت بزيارة مدينة "اتيراو" بجمهورية كازاخستان في يوم ٢٥ابريل ٢٠٢٣م وقد سجلت هذه الملاحظات على هامش المشاركة بمؤتمر جامعة البترول الخاص بالاحتفال بمرور ٨٠٠ عام على ميلاد السلطان الظاهر بيبرس.

المطلب الثالث

أحوال الدعوة الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس

ويتناول الفروع التالية:

الفرع الأول: إحياء الخلافة العباسية:

الفرع الثاني: الدفاع عن الحصون الإسلامية ورد العدوان عن البلدان الإسلامية.

الفرع الثالث: انتشار الفتوح الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس.

الفرع الرابع: تشييد المساجد والمدارس وتشجيع شيوخ الإسلام على الدعوة.

الفرع الخامس: الظاهر بيبرس والأماكن المقدسة:

الفرع السادس: النهضة العلمية وظهور العلماء.

الفرع السابع: القضاء على فرقة الحشاشين الشيعية.

الفرع الثامن: مساهمة السلطان بيبرس في نشر التصوف الإسلامي.

المطلب الثالث

أحوال الدعوة الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس

يعتز المماليك بإسلامهم وخدمتهم للإسلام حيث كان الدين الإسلامي هو الرباط الذي يربط بينهم وبين الشعوب التي يحكمونها، وقد خدم الظاهر بيبرس الدعوة الإسلامية خدمات جليلة، حيث بذل قصارى جهده في الحفاظ على الجبهات الداخلية للبلاد والمناطق الإسلامية، وقد ركز جهوده في محاربة الفساد ونشر الفضيلة والعدل ومحاولة بناء مجتمعات إسلامية يمكنها مجابهة أعداء الأمة الإسلامية.

هذا، ويعد الظاهر بيبرس أول المماليك الذين سعوا في تحقيق هذه الأهداف التي تخدم الأمة الإسلامية. يقول الإمام ابن كثير: **" كان شجاعا عالي الهمة بعيد الغور مقداما جسورا معتنيا بأمر السلطنة، يشفق على الإسلام متحليا بالملك، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله".**[١]

ويمكن إبراز هذا المطلب في فروع محددة وهي كما يلي:

(١) البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٧٥، ط دار الفكر العربي، بدون.

الفرع الأول

إحياء الخلافة العباسية

اعتاد العالم الإسلامي على وجود الخليفة الذي تجمتع تحت رايته الولايات والأقاليم المسلمة، سواء كان هذا الخضوع والتبعية فعليا أو شكليا كما حدث في فترات كثيرة من تاريخ المسلمين.

وقد أحدث سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول خوفا وهلعا كبيرين في نفوس الشعوب المسلمة، وبقي المسلمون بدون خليفة زهاء ثلاث سنوت، حتى أحياها الظاهر بيبرس حيث كانت الأمة بحاجة إلى وجود معنى للخلافة لتوافر نظرة الإجلال والإكبار للخليفة من قبل الشعوب المسلمة.

يقول شافع بن علي بن عباس، صاحب كتاب حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية في بابٍ موسوم بذكر وصول الإمام المستنصر من بغداد: "**وصل هذا المذكور -يعني الخليفة - إلى قلعة الجبل المحروسة، يوم الخميس تاسع شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمئة، فتلقاه – يعني الظاهر بيبرس- في أمرائه، وبياض دولته من القضاة والعلماء وغيرهم من العوام، واستقر ببرج العافية، وقد كان هيّأ له، ورتب له ما يحتاج إليه من الراتب، وجرد في خدمته جماعة**".[١]

وبهذا فقد حقق الظاهر بيبرس هدفا ساميا للأمة في ذلك الوقت حيث كان يشكل وجود الخليفة شعارا تجمتع عليه الأمة من كافة الأقطار والبلدان.

---

(١) حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، شافع بن علي بن عباس، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٨٩م، ص ٧٩.

وأضيف: أن هذا الكتاب قائم على كتاب ألفه جد المؤلف لأمه وهو كتاب: " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر". لمحي الدين بن عبد الظاهر. ولقيمة كتاب المناقب المستمد من الروض عكف باحثون كثر على تحقيقه وتنقيحه. وقد كان غرض مؤلف كتاب المناقب أن يخدم الحقيقة التاريخية التي عالجها جده في كتابه "الروض". ولا شك أنه قد خدم تاريخ هذه الحقبة ولم يأخذ أجرًا على ما فعل، وأقترح على الباحثين: من يضطلع بتحقيق الكتابين تحقيقا يوضح لنا الكثير من الحقائق.

الفرع الثاني
الدفاع عن الحصون الإسلامية
ورد العدوان عن البلدان الإسلامية

بعد انتصار السلطان قطز على العدو المغولي في معركة **"عين جالوت"**، واصل السلطان الظاهر بيبرس راية الجهاد ضد العدو، وقد وصلته رسائل من المغول تهدده بالقتال وتغريه بالمصالحة والمهادنة من جانب آخر. لكن رد الظاهر على المغول بمواصلة الجهاد ضدهم. حيث قال لرسله: **" أعلموه -يعني قائد المغول- أني من ورائه بالمطالبة ولا أزال حتى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض".**[١]

وترجم الظاهر بيبرس ذلك الكلام إلى واقع ملموس. حيث تحطمت في عهده أسطورة الأشباح المغولية التي لا تهزم وأخذ الإسلام ينتشر بين هؤلاء الغزاة، واستعادت الجبهة الإسلامية ثقتها في القدرة على مواجهة التحديات، بل وفرضت إرادتها على الأعداء.

ومن جانب آخر فقد واجه الظاهر بيبرس الحملات الصليبية، فقد شاءت الأقدار أن يمر العالم الإسلامي بمحن كثيرة وابتلاءات عظيمة، وقد جاء العدوان الصليبي على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧هـ ١٢٤٩م فقدم المماليك بطولة نادرة في التصدي لحملات الصليبين في ذلك الوقت.

وكان للخطة التي وضعها بيبرس- وكان وقتها أميرا مملوكيا تابعا للأمير أقطاي- ونفذها فرسانه من المماليك في شوارع "المنصورة" أثر بالغ في هزيمة الصليبيين واستطاع بمساعدة المصريين المتطوعين القضاء تماما على الجيش الصليبي وترك بيبرس القوات الصليبية تقتحم مدينة المنصورة بعد أن ظن فرسانها أنها خاوية من الجنود والسكان، واندفعوا نحو قصر السلطان للاستيلاء عليه، فخرج عليهم بجنوده بغتة وأخذوهم من كل جانب وجرت في ذلك الوقت عدة معارك انتهت بأسر الملك لويس التاسع عشر، بعد أن قتل عدد كبير من القوات الصليبية وأسر العدد الأكبر.

---

(١) البداية والنهاية ابن كثير ج ١٣، ص ٢٥٤، مرجع سابق.

الفرع الثالث

انتشار الفتوح الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس

اهتم الظاهر بيبرس بالفتوح الإسلامية حيث فتحت في عهده "البيرة"، و"الكرك" و"الشوبك"، ومدينة "قيسارية" وقلعة "الهورى" وقلعة "بانياس" وقلعة "يافا"، وكانت أهم المدن التي فتحها الظاهر بيبرس مدينة أنطاكية.

وقد قال عنه أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري صاحب كتاب: كنز الدرر وجامع الغرر: **" إن عهد الظاهر بيبرس كان كعهد الرشيد وصلاح الدين أحد عصور الإسلام الذهبية"** (١)

وقد كثرت الفتوحات في عهد الظاهر بيبرس بعد الانتصارات على المغول وعلى الحملات الصليبية حيث ساد حكمه على بلاد مصر وبلاد الشام وسورية إلى أن وصل إلى أنطاكية شمالا، وقد استتب الأمر للسلطان بيبرس بانتشار الفتوحات الإسلامية وتحرير معظم الأراضي من أيدي الصليبين.

(١) كنز الدرر وجامع الغرر، ابو بكر بن ايبك الدواداري، ج٣، ص ٢٤١، تحقيق: محمد السعيد جمال الدين، ١٩٨١م، طبعة: عيسى الحلبي، القاهرة.

الفرع الرابع
تشييد المساجد والمدارس
وتشجيع شيوخ الإسلام على الدعوة

اهتم السلطان الظاهر بيبرس بإنشاء المؤسسات الدينية عامة والمساجد بصفة خاصة في محاولة لتقوية رباط الدين بين أبناء الأمة الإسلامية، وحرصا على إحياء الشعائر الدينية وقد قال صاحب كتاب صبح الأعشى:" **إنها أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستعصى**".[١]

وهنا تجدر الإشارة إلى دور الظاهر بيبرس في النهوض بالأزهر الشريف بعد استعادته من الفاطميين الشيعة أصحاب الفكر الباطني.

فقد ظل الأزهر قرابة قرن من الزمن لا تقام فيه صلاة الجمعة من سنة ٥٦٧هـ حتى سنة ٦٦٥هـ طوال فترة الدولة الأيوبية وسنوات من حكم المماليك، وهذا يرجع إلى سياسة الدولة الأيوبية التي كانت تهدف إلى مواجهة الفكر الفاطمي الشيعي بالمنع، وحيث كان الأزهر مركز التشيع في الدولة الفاطمية فقد عمد الأيوبيون إلى المصادمة بمنع الخطبة والدرس في الأزهر طوال هذه المدة.

لكن السلطان الظاهر بيبرس أحسن التصرف حينما واجه الفكر بالفكر، فجعل الأزهر مركزا لإشعاع الفكر السني المستنير ومركزا لإنتاج الفكر الحضاري، ومركزا للقوة العلمية التي تدافع عن المذهب السني الوسطي وتنشره في ربوع الأرض.

وأعاد الظاهر بيبرس الخطبة في الجامع الأزهر بعد انقطاع، وأوقف الهبات والهدايا للأزهر الشريف فاجتذب الأزهر إليه صفوة العلماء من أنحاء بلدان العالم الإسلامي.

وعلى يدي الظاهر بيبرس أعيد للأزهر مكانته حتى قال صاحب كتاب صبح الأعشى:" **إن الجامع الأزهر قد أخذ منذ ذلك الوقت- يعني زمن الظاهر بيبرس- يتزايد**

---

(١) صبح الأعشى ج ٣، ص ٤، مرجع سابق.

أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا". [١]

ولا يخفى أثر هذه الصنيع على الأمة الإسلامية حيث غير وجهة الأزهر الشريف من الدعوة إلى التشيع وخدمة أهداف الدولة الفاطمية، إلى الوجهة الصحيحة الوسطية حيث سلامة المعتقد وصحة الفقه والفكر.

(١) صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٦٤، مرجع سابق.

الفرع الخامس
الظاهر بيبرس والأماكن المقدسة

أولى السلطان بيبرس الأراضي المقدسة اهتماما كبيرا حيث قدم إلى مكة المكرمة في سنة ٦٦٧هـ، وبقي كأحد الناس لا يحجبه أحد وغسل الكعبة الشريفة بيده وحمل الماء على كتفه بالقربة، وغسل البيت وجلس على باب الكعبة وأخذ بأيدي الناس، وسبل البيت الحرام للناس وعمر الحرم النبوي الشريف، ولم يكتف الظاهر بيبرس بالعناية بالحرمين الشريفين، بل أمر بإرسال الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة ببيت المقدس وحدد مسجد إبراهيم عليه السلام. (١)

وقد ذكر المؤرخون أن الظاهر بيبرس حج سنة ٧١٨هـ ووزع على الفقراء عشرين ألف دينار، وأسقط المكوس والضرائب عن أهل مكة. ثم توجه إلى المدينة المنورة فدخلها ماشيا على أقدامه وقيل في ذلك:

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأناك انخفاض وارتفاع
فذاك الشمس تبعد إن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وزار قبر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو مكشوف الرأس ثم وزع على فقراء المدينة عشرين ألف دينار كما فعل بمكة.

وقد اعتبر السلطان بيبرس أن الأماكن المقدسة جزءً من مملكته الإسلامية، وتحمل المسؤولية تجاه أهلها وزوارها.

فقد ذكر أن الملك الظاهر بيبرس بلغه أن الشريف محمد بن سعيد حاكم مكة والمدينة المنورة وقع منه ظلم للتجار والحجاج والمارين والواردين إلى الحرمين الشريفين وتجاوز الأمور وخرج عن الحد فكتب إليه: **(أما بعد فالحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن. والسيئة في نفسها سيئة وهي من النبوة أقبح. وقد بلغنا أيها السيد أنك بدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة وفعلت ما يحمر الوجه ويسود**

(١) قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، د. أحمد مختار العبادي، ص ١٩٧.

الصحيفة. فكيف تفعل القبيح وجدك الحسن وتضيع الفروض ومن بينكم عرفت الفروض والسنن، وتقاتل حيث لا تكون فتنة وأنت من أهل الكرم وساكن الحرم. فكيف آويت المجرم وأسفكت دم المحرم ومن يهن الله فماله من مكرم، فإن تقف عند حدك وإلا أغمدنا فيك سيف جدك والسلام".

فكتب إليه الجواب: **"أما بعد فالمملوك معترف بذنبه تائب إلى ربه. فإن أخذت فأنت الأقوى وأن تعفو أقرب للتقوى).**[1]

وهكذا نعمت الأماكن المقدسة بعناية الظاهر بيبرس وهذا يدل على مدى احترامه للأماكن المقدسة. والشعائر الدينية.

وسبحان الذي يقيض لدينه من يكلؤه حيث يقوم بتأمين طريق الأماكن المقدسة، وهذا الذي يحتاجه كل مسافر وكل ظاعن إلى الأراضي المقدسة، ومن العجب أن ينتقى من يقوم بهذه المهمة من هو ليس عربيا وإنما مملوك وافد إلى بلاد العرب من مسافة تزيد عن ٥٠٠٠كم وهي مدينة أتيراو الكازاخية وهو السلطان الظاهر بيبرس.

تأسيس المدرسة الظاهرية:

أسس الظاهر بيبرس مدرسة بقلعة الجبل وزودها بالكتب التي تبحث في سائر العلوم، وقد شرع في بنائها سنة ٦٦٠هـ بخط بين القصرين بالقاهرة على أنقاض قلعة الخيم، ووقف عليها أوقافا، وأمر بألا يستخدم في عمارتها عامل بغير أجرة وألا ينقص مرتب من يقوم بتشييدها.

"ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢هـ دعا العلماء والفقهاء والقراء للاجتماع بها؛ فجلس أتباع المذهب الشافعي بالإيوان القبلي والحنفية بالإيوان البحري وأهل الحديث بالإيوان الشرقي والقراء بالإيوان الغربي. وعين لكل فريق من هؤلاء مدرسا. وعندما اكتمل جمعهم تناظروا في شتى المسائل ثم مدت لهم الأسمطة. وقام بعض

(١) بدائع الزهور من وقائع الدهور، لابن إياس، ج١، ص٤٤٩، ط الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٠م.

الشعراء فأنشدوا شعرا أشادوا فيه بذكر هذه المدرسة ومؤسسها الملك الظاهر. ولما اكتمل مجلسهم منحهم السلطان الخلع".[١]

وبالنظر في النص السابق يمكن ذكر بعض الملاحظات:

١- اهتمام السلطان الظاهر بيبرس بتأسيس المدارس العلمية؛ إيمانا منه بالقيام بواجب الدعوة الإسلامية والذي لا يتحقق إلا من خلال مدراس علمية تعمل على نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

٢- تأسيس هذه المدرسة على أساس متوازن بين العلوم حيث جمع بين الفقه والأصول والقراءات وغيرها فلم يقتصر على علم واحد أو فن واحد.

٣- تأسيس هذه المدرسة على أساس التعددية الفقهية حيث شملت كل المذاهب الفقهية الموجودة في مصر في ذلك الوقت؛ وهذا يشير إلى التعددية الفكرية التي يتحلى بها المصريون حكاما وعلماء وشعوبا؛ فلا إقصاء لمذهب لحساب مذهب، فقد كان يدرس المذهب الشافعي بجوار المذهب الحنفي وغيرها من المذاهب.

٤- التفاعل الثقافي "المثقافة" بين العلماء والفقهاء وطلابهم حيث يناظروا فيما لديهم من مسائل وأفكار وصولا لأفضل الأطروحات التي تقدم في هذه المدرسة، مع توافر الاحترام والتوقير بين الجميع. بما يجعل الشعراء والمؤرخين يشيدون بهذا الصرح العلمي الهائل.

(١) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، محمد جمال الدين سرور، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٨م ص ١٥٦.

الفرع السادس

النهضة العلمية وظهور العلماء

اهتم الظاهر بيبرس بنشر العلوم الإسلامية، فشيّد المدارس وزودها بخيرة العلماء والفقهاء، وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في عهد الفاطميين، فصار الطلاب يهرعون إليه من كل أرجاء العالم الإسلامي، فاستعادت بذلك القاهرة مكانتها العلمية والأدبية؛ ونبغ بها بعض الكتاب والمؤلفين ومن أشهرهم:

١- **محي الدين بن عبد الظاهر:** والذي يمتاز بأنه نشأ بالقاهرة وتلقى بها علومه، وبرع في نظم الشعر وكتابة الرسائل والتاريخ، ومن مؤلفاته كتاب **"السيرة الظاهرية"** ويشتمل على تاريخ الملك الظاهر بيبرس. وهو من المراجع المهمة التي يعتمد عليها في استقصاء تاريخ هذا السلطان. وقد نقل عنه كل من النويري في كتابه "**نهاية الأرب في فنون الأدب**" ومفضل ابن أبي الفضائل في كتابه: **"النهج السديد"**.

٢- **ابن خلكان:** والذي نشأ بمدينة إربيل ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٦٣٦هـ بعد ما تلقى علومه في حلب ودمشق. ومن مؤلفاته كتاب **"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"** وهو يحتوي على معلومات قيمة في التاريخ والأدب، ويمتاز بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبلدان وتحقيق الحوادث وترتيب التراجم على حسب حروف المعجم.

٣- **جمال الدين بن واصل:** ولد بحماة وبها تلقى تعليمه ثم قدم إلى القاهرة سنة ٦٥٩هـ. ومن تآليفه: كتاب: **"نخبة الفكر في المنطق"** و**"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"** وقد وقف ابن واصل عن تأليف هذا الكتاب الأخير سنة ٦٦١هـ. ويرجع السبب في توقفه إلى ذهابه إلى جزيرة صقلية وإقامته بها عدة سنوات.

٤- **الإمام البوصيري:** وهو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري المتوفى سنة ٦٩٥هـ، وقد ولد بدلاص من قرى مديرية بني سويف سنة ٦٠٨هـ. وانتقل إلى القاهرة وفيها تلقى العلوم العربية والأدب واشتغل بالكتابة

والشعر ويمتاز شعر البوصيري بالرصانة والجزالة ويكثر فيه مراعاة البديع. ومن أهم أشعاره قصيدة **نهج البردة والهمزية في مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم-**. وقد توفي الإمام البوصيري في الإسكندرية سنة ٦٩٥هـ. وله مسجد كبير بها يعرف الآن بمسجد الأباصيري تقيم فيه الحكومة الاحتفالات الدينية.(١)

٥- **الإمام العز بن عبد السلام:** وهو عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم الحسن بن محمد بن المهذب أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي، وهو شيخ المذهب الشافعي في ذلك الوقت، وكان من الذين عاصروا الدولتين: الأيوبية والمملوكية، وقد تولى قضاء مصر والخطابة في الجامع العتيق، ثم استقر على التدريس في المدرسة الصالحية، وقد خدم الدعوة الإسلامية في جهاده وتعاونه مع دولة المماليك بقيادة السلطان قطز والظاهر بيبرس من بعده ضد الغزو المغولي. ويذكر أن السلطان قطز تتلمذ على يديه وكان نتيجة لذلك تفاني السلطان قطز في خدمة الإسلام وأهله.

وللعز بن عبد السلام مواقف خالدة منها: حين أراد الملك المظفر قطز الخروج لقتال التتار بالشام، وأراد أن يجهز الجيش ولم يجد ما يكفيه من المال، فاحتاج إلى المساعدة بشيء من أموال الرعية؛ لمواجهة العدو المغولي بقوةٍ تكسر شوكته، فجمع القضاة والفقهاء لاستشارتهم في هذا وطلب الموافقة على ما عزم عليه. فسكت من كان في المجلس إلا الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي قال: **"إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على الحاكم قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والكبابيش المزركشة وأسقاط السيوف من الذهب والفضة وغير ذلك وتبيعوا ما لكم من الحوائض الذهبية واللألئ النفيسة. فيقتصر كل الجند على سلاحهم ومركوبهم ويتساووا هم والعامة. أما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في الجند من الأموال واللالئ الفاخرة فلا".**(٢)

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٤ بتصرف.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، المؤسسة =

وقد تم تنفيذ فتوى العز بن عبد السلام حتى لقب ببائع الملوك والأمراء، وقد حضر الظاهر بيبرس جنازة الإمام العز سنة ٦٦٠هـ حيث دفن بالمقطم.

=

المصرية العامة، بالقاهرة ط ١٩٦٣م، ج ٧، ص ٧٢.

الفرع السابع
القضاء على فرقة الحشاشين الشيعية

التعريف بفرقة الحشاشين:

١- فرقة الحشاشين هي من أهم الجماعات الشيعية المتطرفة التي نشرت الذعر والرعب في كثير من البلدان الإسلامية. وقد اشتهرت بالتآمر والغدر والقتل، ومن أهم زعماء هذه الفرقة هو الحسن الصباح وهو من طوس وقد درس مذهب الباطنية واعتنقه. وقد ذاقت الأمة الإسلامية من هذه الفرقة مرارات التخريب والاغتيالات.

٢- وكان الحشاشون في سورية وبلاد الشام قد شاركوا في التصدي للتهديد المغولي، وقد حاولوا كسب ثقة المماليك بقيادة الظاهر بيبرس حيث أرسلوا إليه السفارات والهدايا في بداية الأمر، غير أن الظاهر بيبرس لا يمكن أن يثق فيهم نظرا لاعتماد مذهبهم على الخيانة والغدر والاغتيالات، لذا أمر بجمع الضرائب والرسوم من الحشاشين ولم يكن باستطاعة الحشاشين إلا أن يدفعوا الجزية بدلا من أخذها من أمراء الشام والدول المجاورة في وقت سابق لحكم السلطان الظاهر بيبرس. وسرعان ما أصبح بيبرس هو الذي يعين رؤساء الحشاشين وقادتهم، ولكثرة الخيانات والغدر بينهم فقد قرر الظاهر بيبرس التخلص نهائيا من فرقة الحشاشين التي أقضّت مضاجع الأمة لأكثر من قرنين من الزمن. حيث استولى الظاهر بيبرس على قلعتي: العليقة والرصافة وسقطت قلعة الخوابي في العام نفسه لتسقط بقية القلاع لتنتهي بذلك دولة الحشاشين في بلاد الشام.[١]

٣- ولا يخفى على الباحثين ما كان لجماعة الحشاشين من ضرر بالغ على الأمة في ذلك الوقت حيث شكلت أعتى الفتن الداخلية التي يعاني منها المسلمون على المستوى الداخلي، في الوقت الذي كانت تحيط بالأمة العديد من التحديات،

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، ج ٥، ص ٢٣٦، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٩٠م.

وأبرزها الهجمات المتوالية من الشرق حيث المغول الذين لم يتركوا حجرا على حجر أو يرحموا بشرا، ويبقوا زرعا، بل كان غزوهم ينشد الإبادة.

ومن ناحية الغرب حيث الهجمات الصليبية التي لا تنقطع إلا بالاحتلال للقدس الشريف، وذاقت الأمة من هذه الحملات مرارات الخيانة والغدر والقتل الشامل للمحاربين والعامة، وتشهد المذابح التي خلفتها هذه الهجمات المتكررة على فظاعة الجرائم التي انتهجها الصليبيون في حملاتهم.

فقيض الله الظاهر بيبرس للاضطلاع بضبط الجبهة الداخلية حيث قضى على فرقة الحشاشين التي كانت تقوم على الغدر والخيانة بقتل العلماء والأمراء غيلة في كل مكان في الأمة الإسلامية، وأمن الجبهة الداخلية للأمة من مؤامرات هذه الفرقة المتطرفة.

الفرع الثامن

مساهمة السلطان بيبرس في نشر التصوف الإسلامي

وفي هذا الفرع نلقي الضوء على العلاقة الوطيدة بين السلطان الظاهر بيبرس وبين شيوخ التصوف الإسلامي في ذلك الوقت، حيث عمد إلى إكرام أهل التصوف والتقرب منهم.

يقول ابن شداد في كتابه تاريخ الملك الظاهر: (لما علم- تغمده الله برحمته- أن محبة الفقراء عروة لا يخشى انفصامها، وركن جعل إليه ملاذ النفوس واعتصامها، وأن أفضل ما يتقرب به المتقرب إلى الله العظيم تعظيم أوليائه، وتوفير حظهم من الإكرام الذي أوجبه على ألسنة أنبيائه، ثابر على الوفود عليهم والتردد إليهم والقيام بحقوقهم والاهتداء بلوامع بروقهم، حيث كانوا أقطار الأمصار أحياء كانوا أو أمواتا ينتظرون الإنشار، وصحب جماعة متأدبا بآدابهم متعلقا بأسبابهم، ينكس رأس العز لديهم بالخضوع، ويقود إليهم نفسه بزمام الخشوع:

متواضعا سن التواضع للفتى مع رتبة ينحط عنها الكوكب

... وأقام -يعني السلطان الظاهر بيبرس- زوايا للمشايخ بدمشق والقدس، وأغدق عليها أعمال البر وهذا من فرط مالهم في قلبه من المحبة والرغبة وصفاء النية وحسن العقيدة، وإذا ما ورد عليه المشايخ من أهل الحجاز والحرم النبوي، كان يعظمهم ويتبرك بهم...) [(١)].

ويذكر في طليعة أهل التصوف الذين كان السلطان بيبرس يتقرب إليهم ويتودد لهم:

١- السيد أحمد البدوي المتوفى ٦٧٥هـ حيث ذكر صاحب شذرات الذهب، أن السلطان الظاهر بيبرس بمجرد وصول السيد البدوي إلى مصر قادما من المغرب تلقاه الظاهر بيبرس بعسكره، وأكرمه وعظمه.

---

(١) تاريخ الملك الظاهر، عز الدين محمد بن علي بن شداد ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م، دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن مركز الطباعة الحديثة ببيروت، ط ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٢٧١.

٢- الشيخ خضر الكردي العدوي المتوفى سنة ٦٧٥ فقد ذكر ابن كثير: كان السلطان – يعني الظاهر بيبرس – ينزل بنفسه إلى زاويته التي بناها له بجبل المزة في كل أسبوع مرة أو مرتين، ووقف على زاويته شيئا كثيرا جدا.

وكان الشيخ خضر العدوي معظما عند الخاصة والعامة بسبب حب السلطان بيبرس وتعظيمه للشيخ خضر، فقد كان بيبرس يستشيره في أموره ولا يخرج عما يشير عليه به، وكان يأخذه معه في سفره وغزوه، وكان قد أخبر بيبرس بأنه سوف يصير سلطانا قبل أن يتولى الحكم ويصبح سلطانا على مصر، وقد شجع السلطان على جهاد العدو، فكان مثالا للمتصوف الفقيه الذي يعرف ما يجب على الأمة في كل مجال.

ويحدثنا ابن عبد الظاهر، رئيس ديوان السلطان، عن حضور الصوفية للحروب، وهو شاهد عيان بقوله: (وحضر العباد، والزهاد، والفقهاء، والفقراء (الصوفية) إلى هذه الغزاة المباركة التي ملأت الأرض بالعساكر، وأصناف العالم، ولم يتبعها خمر ولا شيء من الفواحش، بل النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال، ويجررن في المجانيق، وأطلق لجماعة من الصالحين الرواتب، مثل الشيخ علي المجنون والشيخ إلياس، ومن الغنائم والحوائج. وأطلق للشيخ على البكاء جملة من المال. وبعد فتح بيت المقدس، زار السلطان قبور الأنبياء والصحابة والصالحين، المدفونين هناك)[1]

ويتضح مما سبق اهتمام السلطان الظاهر بيبرس بالتصوف الإسلامي ومن مظاهر هذا الاهتمام الحفاوة البالغة لشيوخ التصوف والطرق الصوفية في ذلك الوقت، ومن مظاهره أيضا الرواتب والوقف الكبير الذي رصده للمتصوفة والمريدين، ومن مظاهره كذلك المكانة الرفيعة التي حظي بها شيوخ الطرق الصوفية في فترة حكمه.

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، محيي الدين بن عبد الظاهر ٦٢٠هـ /١٢٢٣م – ٦٩٢هـ/ ١٢*٢م تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ٤٣٢.

الخاتمة

أولا النتائج:

ينتهي البحث إلى ما يلي من نتائج:

١- العلاقة التاريخية بين جمهورية مصر العربية وجمهورية كازاخستان التي تأسست بقدوم الظاهر بيبرس من أرض كازاخستان مملوكا إلى أرض مصر، حيث أصبح في فترة وجيزة قائدا وسلطانا على دولة مصر والشام، وهنا نتيجة مهمة مؤداها أن أرض مصر رحبة للنجباء والأذكياء حيث تسمح لهم أن يتبوؤا أعلى المناصب، والسطان الظاهر بيبرس لم يكن بدعا في ذلك فقد سبقه في التأكيد على هذه النتيجة كثيرون أبرزهم أنبياء ومرسلون كما حدث مع سيدنا يوسف عليه السلام؛ حيث جاء إلى مصر مملوكا فأصبح عزيز مصر حيث جعل على خزائن الإرض وما ذلك إلا لعلمه وحفظه وأمانته وهكذا أرض مصر في كل زمان ووقت تعطي العاملين مكانهم ومكانتهم.

٢- ثبوت مشاركة الظاهر بيبرس في الجهاد الإسلامي ضد عادية المغول شرقا وضد الحملات الصليبية غربا.

٣- أن الظاهر بيبرس قدم خدمة جليلة للدعوة الإسلامية من حيث الحفاظ على المذهب السني واعتماده، وإلغاء المذهب الشيعي الفاطمي واستبعاده.

٤- وجود الظاهر بيبرس على سدة الحكم في ذلك الوقت وقضاؤه على فرقة الحشاشين المتطرفة في العقيدة والعمل كان سببا في الحفاظ على الأمة الإسلامية وسلامتها من فتنة التشيع خصوصا ومن الفتن الداخلية عموما.

٥- استقرار الدعوة الإسلامية كان مرتهنا باستقرار الدولة الإسلامية، فحين تمكن الظاهر بيبرس في استقرار الدولة واستقرار شؤن الحكم، نجحت الدعوة واستطاع العلماء في بذل مجهوداتهم في تبليغ الدين ونشره.

٦- انتشار المدارس والمساجد وكثرة العلماء والأدباء دليل على نجاح الحاكم في إدارة دولته. وهكذا كان عهد الظاهر بيبرس حيث انتشرت فيه المساجد والمدارس العلمية وأوقفت الأوقاف على العلم والعلماء.

ثانيا: التوصيات.

وينتهي البحث بعرض بعض التوصيات:

١- إعادة قراءة التاريخ بمنهج إسلامي محايد يعيد للشخصيات الإسلامية والتاريخية اعتبارها ويزيل عنها الشبهات المثارة.

٢- بذل مزيد من الجهد في تحقيق كتب التراث الخاصة بفترة حكم دولة المماليك فقد تكشف لنا عن قادة بارزين نسيتهم الأجيال المتعاقبة.

٣- عمل متاحف مشتركة بين الدولتين المصرية والكازاخية تجسد المواقف التاريخية الخالدة بين البلدين الكريمين. حيث يحفظ لنا التاريخ عددا من قادة السياسة والفكر والعلم كانت لهم جهود مشتركة بين البلدين.

أهم المراجع

- القرآن الكريم.
- كتب السنة.
- صبح الأعشى في كتابة الإنشا- الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندي، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.
- دولة المماليك في مصر البداية والنهاية، د. إيناس حسني البهجي، الخرطوم، دار التعليم الجامعي، بدون تاريخ.
- موسوعة التاريخ الإسلامي، أد أحمد شلبي، مكتبة النهضة، ١٩٩٠م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، ط دار الفكر العربي، بدون.
- حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، شافع بن علي بن عباس، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٨٩م.
- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، د. أحمد مختار العبادي.
- بدائع الزهور من وقائع الدهور، لابن إياس، ج١، ط الهيئة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٠م.
- الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، محمد جمال الدين سرور، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٨م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، المؤسسة المصرية العامة، بالقاهرة ط ١٩٦٣م.
- التاريخ السياسي والعسكري للدولة المملوكية في عهد الظاهر بيبرس، سلوى رشيد إسكندر، ٢٠٠٩م، رسالة دكتوراة، جامعة دمشق، سوريا،
- الدعوة الإسلامية في العصر المملوكي، أحمد رفاعي إسماعيل، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، ١٩٩٤م.
- العلاقات المصرية- الهندية في العصر المملوكي دراسة في الجوانب السياسية والحضارية، د. ياسر عبد الجواد المشهداني، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، الطبعة ٢٠١٥م.
- حياة الملك الظاهر بيبرس الأسد الضاري قاهر التتار ومدمر الصلبيين، محمود شلبي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، محيي الدين بن عبد الظاهر ٦٢٠هـ /١٢٢٣م – ٦٩٢هـ/ ١٢*٢م تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، شفيق جاسر أحمد محمود، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الحادية والعشرون – العددان:٨١، ٨٢- المحرم - جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ.
- التحفة المملوكية بيبرس المنصوري، د. عبد الحميد صالح حمدان – القاهرة ١٩٨٧م.
- تاريخ الملك الظاهر، عز الدين محمد بن علي بن شداد ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م، دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن مركز الطباعة الحديثة ببيروت، ط ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

Sources and references

-The Holy Quran.

-Books of Sunnah.

-Sobh Al-A'sha Fi Ketabat Al-Ensha - Sheikh Abu Al-Abbas Ahmed Al-Qalqashandi, Egyptian Book House in Cairo, 1340 AH / 1922 AD.

-Dawlat Al-Mamalik Fi Misr Al-Bedaya Wa Al-Nehaya, Prof. Enas Hosni Al-Bahji, Khartoum, University Education House, no date.

-Mawso'at Al-Tariekh Al-Islami, Prof. Dr. Ahmed Shalabi, Al Nahda Library, 1990 AD.

-Al-Bedaya Wa Al-Nehaya, Ibn Kathir, Dar Al-Fikr Al-Arabi, Bedoun.

-Hosn Al-Manaqeb Al-Sereya Al-Montaza'a Min Al-Sera Al-Zaheria, Shafi' bin Ali bin Abbas, editing: Abdul Aziz Al-Khowiter, Riyadh, 1989 AD.

-Qeyam Dawlat Al-Mamalik Al-Ola Fi Misr Wa Al-Sham, Prof. Ahmed Mukhtar Al-Abadi.

-Badaai' Al-Zuhur Min Waqaai' Al-Duhur, by Ibn Iyas, P. 1, edition of the Egyptian Book Organization, Cairo, 1980 AD.

-Al-Zahir Baybars Wa Hadarat Misr Fi 'Asroh, Muhammad Jamal al-Din Sorour, Cairo, Dar al-Kutub al-Masriyya Press, 1938 AD.

-Al-Nojom Al-Zahira Fi Molok Misr Wa Al-Qahira, Jamal al-Din Abu al-Mahasin Yusuf bin Taghri Bardi, The Egyptian General Institution, Cairo, 1963 AD.

-Al-Tariekh Al-Seiasi Wa Al-'Askari Lildawla Al-Mamlokia Fi 'Ahd Al-Zahir Baybars, Salwa Rashid Iskandar, 2009, PhD thesis, University of Damascus, Syria.

-Al-Da'wa Al-Islamia Fi Al-'Asr Al-Mamloki, Ahmed Rifai Ismail, master's thesis, Al-Azhar University, 1994 AD.

-Al-'Elaqat Al-Misriya-Al-Hendiya Fi Al-'Asr Al-Mamloki Derasa Fi Al-Jawaneb Al-Seasia Wa Al-Hadariya, Prof. Yasser Abdel-Gawad Al-Mashhadani, The Arab Bureau of Knowledge, Cairo, Edition 2015 AD.

-Hayat Al-Malik Al-Zahir Baybars Al-Asad Al-Dari Qahir Al-Tatar Wa Modamer Al-Salibien, Mahmoud Shalabi, Dar al-Jil, Beirut, first edition 1992 AD.

-Al-Rawd Al-Zahir Fi Serat Al-Malik Al-Zahir, Muhyi Al-Din bin Abdul-Zahir 620 AH / 1223 AD - 692 AH / 12 * 2 AD, edited by Abdul Aziz Al-Khowiter, Riyadh, first edition 1396 AH / 1976 AD.

-Al-Mamalik Al-Bahariya Wa Qadaaohm ‘Ala Al-Salibien Fi Al-Sham, Shafiq Jasser Ahmed Mahmoud, Islamic University of Madinah, the twenty-first year - Editions: 81, 82 - Muharram - Jumada al-Akhira 1409 AH.

-Al-Tohfa Al-Mamlokiya Baybars Al-Mansouri, Prof. Abdel Hamid Saleh Hamdan - Cairo 1987.

-Tariekh Al-Malik Al-Zahir, Izz al-Din Muhammad ibn Ali ibn Shaddad, d. 684 AH / 1285 CE, Publishing House, Franz Steispvisiaden, Center for Modern Printing in Beirut, ed. 1403 AH / 1983 CE.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــوع الصفحة

مقدمة..... ٤٠١
المطلب الأول التعريفِ بالمماليك..... ٤٠٣
المطلب الثاني تعريف بالظاهر بيبرس..... ٤٠٧
المطلب الثالث أحوال الدعوة الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس..... ٤١٠
الفرع الأول إحياء الخلافة العباسية..... ٤١١
الفرع الثاني الدفاع عن الحصون الإسلامية ورد العدوان عن البلدان الإسلامية..... ٤١٢
الفرع الثالث انتشار الفتوح الإسلامية في عهد الظاهر بيبرس..... ٤١٣
الفرع الرابع تشييد المساجد والمدارس وتشجيع شيوخ الإسلام على الدعوة..... ٤١٤
الفرع الخامس الظاهر بيبرس والأماكن المقدسة..... ٤١٦
الفرع السادس النهضة العلمية وظهور العلماء..... ٤١٩
الفرع السابع القضاء على فرقة الحشاشين الشيعية..... ٤٢٢
الفرع الثامن مساهمة السلطان بيبرس في نشر التصوف الإسلامي..... ٤٢٤
الخاتمة..... ٤٢٦
أهم المراجع..... ٤٢٨
فهرس الموضوعات..... ٤٣٢